تفرّق البشر على الارض

لجناب الدكتور بشاره زلزل

ان وجود البشر في جميع جهات المسكونة تمّ بواسطة الظعن اولاً على سبيل التشعع حول ذلك الموطن الاصلي . ويستدلّ على ذلك بالنظر الى خاصّة التنقّل الغريزيّة في البشر طلبًا للرزق . فلا يخفى ان الاقوام الاوّل كان من دابهم الترحل والجولان كما هي حالة البدو . على انهم كانوا يؤلفون قبائل تقترب كلّ منها في الارض الى حيث تناسبها المقام . ولم يكن عليهم باس من قبل تغيرات الجو واختلاف الحرارة لان الانسان يتعوّد على الاقامة في جميع الاقاليم بدون ان يضرّه شيء من ذلك كما هو معلوم . وهذا كافٍ لتعليل ترحال القوم الاول في البر حيث ملأوا بالتدريج الامصار التي كانوا يحلون بها . ثم بعد ذلك ملأوا الجزر والارخيلات بان امتطوا متن البحار بواسطة الزوارق التي كانوا يعلونها بقطع الاشجار واخذ جذوعها ونقرها في الوسط كما يرى مثل ذلك عند هنود اميركا المتوحشين . فكانت طريقة الملاحة الخشنة في ذلك الزمان كافية للعبور من البر الاصيل الى الجزر وبها تمّ المناسبة لما كانت تقتضيه الظروف والمقاصد

ولا نخرج قارّة اميركا عن المبادئ المقرّرة آنفًا بشان سكنى الامصار والبلدان والجزر والارخيلات من قبائل البشر الذين لم يزل دابهم الرحيل والتجوّل من مكان الى آخر . فانهُ لا يصعب العبور من اسيا الى اميركا في بوغاز بهرنج الذي يكاد يكون دائمًا مشغولاً بالجليد فيتمكن العابرون من القارة الواحدة الى الاخرى والحالة هذه من المرور فيهِ مشاةً بدون ان يصيب ارجلهم البلل . وقد وهم الذين قالوا بانقطاع قارة اميركا عن سائر المسكونة مستنجين من ذلك ان اصل النوع الاحمر من البشر انما نشأ فيها منذ البدء والحال ان اصلهم من سكان شمالي اسيا وقد رحلوا من ممالك عابرين في البوغاز المذكور الى شمالي العالم الجديد

وهذه الاتصالية بين النصفين الكرويين الارضيين اي بين العالمين القديم والجديد تتجلى باكثر بيان للمطالعين عند ما يعلمون ان شرذمة من الملاحين قد سافروا بحرًا من جهات نورويج فوصلوا الى نصف الكرة المنوّه عنهُ وكان ذلك نحو الجيل العاشر قبل ما اكتشفهُ خريستوفورس كولومبس باربع مئة سنة كما وضح من تدقيقات المؤرّخين المتاخرين . وقد جاء مصداقًا لهُ ما وُجد عند هنود المكسيك وشيلي من قيودات تاريخية قديمة جدًّا تعلن انهُ في ذلك الزمان قد اشرق في افقهم نور التمدن . ولم يزل موجودًا في اميركا الشمالية آثارٌ معتبرة تشهد على قدمية عدن الانكا (وهم قبيلة من الهنود كانوا متوطنين في بيرو) والازتك (وهم قبيلة من الهنود كانوا في المكسيك) فكان هنود بيرو

القدماء يحسبون بالضبط مدّة السنة الشمسيّة ويعرفون صناعة النقش والحفر ويحفظون وقائع تاريخهم بواسطة اشارات رمزيّة. وكان لهم حكومة منظّمة ذات قوانين وشرائع عادلة. وقد عدّ عندهم جمهورٌ من الخطباء والشعراء والموسيقيين وديانتهم تدلُّ على ما كان عندهم من الآداب فانهم كانوا يعتقدون بالهٍ ازليّ سامٍ خالق كل شيء الاّ انهم كانوا يتوهمون ان ذلك الاله انما هو الشمس وكانوا يقيمون لها هياكل عظيمة. ثم انهُ كان يوجد عندهم تقليد يتداوله الخلف عن السلف يوضح ان مؤسسي ما لكهم انما كانوا غرباء فضلاً عمّا يُلاحظ بالنظر الى علم الاخلاق من جهة اختلافات بليغة بين القبائل الهندية في شكل القحف ولون الجلد تشير الى امتزاج الدم الاسيوي بالدم الاوربي في تلك القارّة. وغير ذلك كثير من الادلة العقليّة والنقليّة التي تبيّن بالكفاية ان قبائل اميركا الاصليين الذين سعوا من ثمة نحو صرح التمدن على قدم النجاح انما كانوا من نسل الفئات الشرقية الشمالية الذين وصلوا الى العالم الجديد ماريّن على الجليد في بوغاز بهرنج ثم رحل اليهم نحلة اسكندينافية من نورويج في الجيل العاشر كما سبق بيانهُ

وبناء عليهِ فالتعليل عن وجود البشر في جميع جهات الارض وفي الجزر لا يلزم منهُ الاعتقاد بوجود مراكز كثيرة لخلق جنسنا. فلو كانت تقليدات الشعوب تقرّر ان جميع الاقطار المسكونة الآن كان مستقرًا فيها نفس الشعوب الذين يملأونها الآن للزم من ذلك التسليم بان خلق البشر انما كان ازواجًا عديدة. والحال اننا نرى ان اكثر التقليدات تعلمنا صريحًا ان كل جهةٍ من الارض قد سكنها على التوالي اقوام مختلفو الاجناس وذلك اما بطريقة الفتح او بطريقة الظعن وان حالة البداوة قد سبقت حالة الحضارة فالبشر اذًا انما كانوا قديمًا بين حل وارتحال. والبرهان على ذلك واضح بالنظر الى تاريخ الامم والشعوب فان قومًا من البربر سافروا من مركز اسيا واجتاحوا المملكة الرومانية. والوندال خرّبوا ايطاليا وتوغلوا بالغزو حتى وصلوا الى افريقية والعرب تملكوا الاندلس وامتدّت فتوحاتهم حتى الى معظم اوربا. على ان ترحل البشر في الايام الاخيرة قد اتسع كثيرًا لاننا نرى ان قارة اميركا يكاد يملأها الاوربيون المتسلسلون بوجه الخصوص من الفرع اللاتيني كالانكليز والاسبانيول وان سكانها الاصليين قد هلكوا الاّ قليلاً بعد افتتاحها سنة ١٤٩٢

اما قارّة اسيا فقد قطن بها شعوب من النوع الايراني غادرت هضاب اسيا المركزية وتبعت طريق الهند فملأتها رويدًا رويدًا. واما قارّة افريقية فقد عبر اليها سكانها من برزخ السويس وجهات العربية وذلك بواسطة الملاحة

فلا دليل اذًا على وجود اكثر من مركز لخلق البشر وبالتبعية لا صحة لشيء مما تذهب اليهِ جرج بوشه وتابعوهُ بل ان الامر لواضحٌ ان الله تعالى قد خلق الانسان الاوّل ذكرًا وانثى ووضعهُ في مكانٍ

عينهُ في الكتاب المقدّس . وذلك موافق كل الموافقة لما قرّرهُ العلماء المتاخرون في مباحثهم المختصّة بعلم تاريخ الانسان الطبيعي مع ان الكتاب المقدس اوضح هذا المبدأ قبل ايجاد المباحث المذكورة باجيال عديدة وهو مع ذلك يضاد كل المضادّة بتعليمهِ وحدانية الله تعالى تعاليم الاديان القديمة الشرقية او الوثنية كما انهُ يضادّ معتقدات الفلاسفة القدماء الفارغة . فايُّ تعليم آكد واسمى واسط من تعليمهِ ان الله تعالى قد خلق الانسان آخر الخلق وانهُ قد سلّطهُ على جميع مخلوقاتهِ باعتبار كونهِ شخصًا اديبًا وله المزية عليها والنتيجة من ذلك صحة ما يعلمناهُ الكتاب المقدس كما قال الاناء المصطفى في خطابهِ وسط ديوان آريوس باغوس في اثينا " وصنع من دمٍ واحدٍ كل امّة من الناس يسكنون على وجه الارض "

السكّر

كان السكّر معروفًا في الهند والصين من عهدٍ بعيد ولم يشع استعمالهُ في اوربا وغربي اسيا حتى ايام الاسكندر . ولما قام العرب وفتحوا سورية ومصر وجزائر البحر وصفا لهم الزمان شرعوا في تعمير البلاد التي استولوا عليها فنقلوا قصب السكر الى قبرص ورودس وكريت وصقلية واسبانيا مع ما نقلوهُ اليها من مواد الزراعة والصناعة وكان القصب يزرع في سورية ايام الصليبيين ويستخرج سكرهُ في طرابلس على ما رواهُ الراهب البرت آكونيسس المؤرخ . وليس المراد في هذه المقالة استقراء تاريخ السكر بل تفصيل طريقة عملهِ اجابةً للسائلين فنقول . لهم في استخراج السكر طرق ابسطها ان يُرَضّ القصب او يُعصر بمعصرة ذات ثلاثة دواليب حديد مركبة على شكل نقط الشاء او بمعصرة من اي نوعٍ كان بشرط ان تُخرج كل العصير او اكثرهُ . وفي كل مئة رطل من القصب تسعون رطلاً من العصير فيها نحو عشرين رطلاً من السكر ولكنهم لا يستطيعون ان يجرّدوا من ذلك اكثر من عشرة . (وقد استنبطوا حديثًا طريقة كيماوية يجرّدون بها كل السكر ولا يرخّص باستعمالها الاّ للكيماوي المجرب لانهُ قد تتولد بها مواد سامّة لا يعرفها ولا يعرف ملافاتها ونزعها الاّ الكيماوي فلم نرَ وجهًا لذكرها) . ثم يؤتى بالعصير من تحت المعصرة الى بيت فيهِ خمسة آنية من نحاس او حديد (والحديد اسلم عاقبة) ويوضع في واحدٍ منها مع لبن الكلس (وهو كلس رائب بقوام اللبن) ويضعون لكل ١٠٠٠٠ درهم من العصير ما بين خمسة وتسعة دراهم من الكلس ولدى اغلاء العصير تطفو عليهِ رغوة خضراء كثيفة فتنزع عنهُ ثم يُنقل نصفهُ الى الاناء الثاني ويغلى الاثنان بنار خفيفة . فان تجمع في اولها زبد يتزع ايضًا وبعد قليل يشتد قوام العصير ويصير كلهُ زبدًا وحينئذٍ تقوّى النار قيسيل ويعدم لونهُ